حركة الزهد ونشأة المصطلحات الصوفية
الحسن البصري (ت 110 هـ/ 728م) نموذجاً

د. أحمد حسن أنور حسن(*)

تمهيد:

لقد استقر الرّأي عند مؤرخي التصوف الإسلامي ودارسيه، على أنه كان وليد حركة زهديّة دينية ساهمت فى نشأتها عوامل سياسية واجتماعية قاسية[1]. فقد ساعدت الأوضاع السياسية والاجتماعية وما آل إليه المجتمع من تصدع كنتيجة حتمية لسيادة آلية القمع السلطوى وتفشى البذخ والترف.. وما شابه ذلك من أمور أدت بأصفياء النفس إلى الفرار بأنفسهم خوفًا على ورعهم وتقواهم فى وقت يعجز فيه الإنسان على إنقاذ الآخرين. فلا تزال دماء سبط الرسول صلى الله عليه وسلم حارة على تربة كربلاء حتى جاء مقتل سعيد بن جبير إمام عصره آنذاك، والذى قتله الحجاج بن يوسف الثقفى عام ستة وسبعين فى خلافة عبد الملك بن مروان، وهو مكبل بالقيود[2]. وفي ظل هذه الظروف القاسية وجد الزهاد فى الزهد ملاذا أمنا يعبر عن رفضهم للخلافة الأموية والاحتجاج عليها. فقامت حركة الزهد فى أول أمرها بغير تخطيط أو تنظيم من أحد. حيث تكونت عن طريق بعض الأشخاص الذين اهتمُّوا من جانبهم بإصلاح حياتهم الخاصة. إلا أنه مع مرور الوقت التفّ الناس حول من اشتهر منهم بزهده وحسن سيرته، وهكذا تكونت حول هؤلاء الزهاد

(*) **د. أحمد حسن أنور حسن:** مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بالوادي الجديد– جامعة أسيوط. ومدير تحرير سلسلة الفلسفة الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

[1] محمد بن الطيب، وحدة الوجود فى التصوف الإسلامي، ص17.

[2] عز الدين بن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج4، ص580.

(ISSN : 2536 - 9555)

حلقات من التلاميذ تصاحبهم فى حياة الزهد والعبادة والتنسك. وبمرور الوقت لم تخلو مدينة من المدن الإسلامية الكبري من أقطاب وممثلين لهذا الاتجاه مما دعا المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (Louis Massignon) إلى القول: إن النزوع إلى التصوف ما خلا منه قطر من الأقطار[3]. فنشأت فى مختلف العواصم الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني الهجريين بعض مراكز الزهد التي أطلق عليها فيما بعد "مدارس الزهد"، وأبرز هذه المدارس هي (مدرسة المدينة، مدرسة البصرة، مدرسة خراسان)[4]. وقد كان اهتمام بعض الزهاد الأولين– فى المدارس السابقة– يدور فى الأغلب حول فكرة الموت ويوم الحساب ومصيرهم بعد الموت من نعيم الجنة أو عذاب جهنم فدفعهم هذا الشعور إلى ممارسة حياة دينية جادة مع الحفاظ على أدق أحكام الشريعة، بل إلى الزيادة فيها من النوافل والأعمال الصالحة. وعلى أساس ذلك أقبل هؤلاء الزهاد على حياة الزهد والفقر والورع

---

[3] لويس ماسينيون ومصطفى عبد الرازق، الإسلام والتصوف، ص16.

[4] **مدرسة المدينة:** من أشهر زهادها أبو عبيدة بن الجراح (ت18هـ/ 639م)، وأبو ذَرٍّ الغفارى (ت32هـ/ 652م)، وسَلمان الفارسى (ت35هـ/ 55– 656م)، وعبد الله بن مسعود (ت32هـ/ 653م)، وحُذَيفة بن اليمان (ت36هـ/ 656م)، وسعيد بن المُسَيَّب (ت94هـ/ 713م)، وسالم بن عبد الله (ت106هـ/ 725م). **مدرسة البصرة:** وكان من أشهر زهادها: الحسن البصرى (ت110هـ/ 728م)، ومالك بن دينار (ت130هـ/47–748م)، وعبد الواحد بن زيد (ت177هـ/ 793م) صاحب طائفة الزهاد فى عبادان، وأبو المهاجر رباح بن عمرو القيسى (ت180هـ/ 796م) ورابعة العدوية البصرية (ت185هـ/ 801م). **مدرسة خراسان:** ومن أشهر زهادها إبراهيم بن أدهم (ت161هـ/ 77– 778م)، وداود الطائى (ت165هـ/ 781م)، والفضيل بن عياض (ت187هـ/ 803م)، وشقيق البلخى (ت195هـ/ 810م)، ومعروف الكرخى (ت200هـ/ 15– 816م).. لمزيد من التفاصيل راجع: أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص79 وما بعدها.. آنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية فى الإسلام، ص38 وما بعدها.. جوزيبي سكاتولين وأحمد حسن، التجليات الروحية، ص54–55.

والاعتكاف والتهجد والصوم والتوكل وغير ذلك من ألوان التنسك والتقشف ابتعادًا منهم عن فتن الدنيا وفسادها.. ويقول الدكتور التفتازاني فى هذا الصدد: ولعله قد تبين من أقوال بعض زهاد البصرة فى الزهد أنها كانت تدور حول معنى الخوف من عذاب الآخرة، وهو الخوف الذي يستتبع العمل الديني الجاد، والانصراف عن ملذات الدنيا بالتقلل فى المأكل والمشرب، وغير ذلك مما لا يخرج عن حدود زهد النبي وصحابته[5].

والجدير بالذكر أن حركة الزهد قدمت المبادئ المؤسسة للتصوف بصفة عامة والمصطلحات الصوفية بصفة خاصة وقد ظهر ذلك بوضوح لدى العديد من الزهاد. حيث نجد الحسن البصري المتوفى 110هـ (أبرز أعلام مدرسة الزهد فى البصرة) يتناول موضوعات [مصطلحات] صوفية مثل: (الزهد والخوف والمحاسبة)، كما سنجد الإمام جعفر الصادق المتوفى سنة 148هـ يتناول هو الآخر بعض المصطلحات الأخرى مثل: (المحبة والتوحيد والمعرفة) وستظهر هذه الموضوعات بعد ذلك كموضوعات رئيسية ومكونات محورية في التصوف الإسلامي.

يعتبر موضوع المصطلحات الصوفية من أهم وأصعب الموضوعات فى التصوف الإسلامى. فقد اهتم أغلب أصحاب المصنفات الصوفية بالحديث عن المصطلحات الصوفية، واعتبروها رموز تعبر عن حالات وجدانية وقلبية وذوقية.

كذلك اهتم بعضهم بوصف تلك العلاقة الجدلية بين المصطلحات الصوفية المتعددة. إلا أنهم فى الوقت نفسه اختلفوا فيما بينهم فى الكثير من الأمور المرتبطة بهذا الموضوع. ويعد اختلافهم فى هذا الموضوع أمرا يميز فردية

[5] أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص77.

(ISSN : 2536 - 9555)

التجربة الصوفية من صوفى لآخر؛ فُكتَّابُ التصوف كَلِفُون بالتقسيمات والتفريعات للموضوع الواحد، وعذرهم فى ذلك كثرة التغييرات النفسية الطارئة على العبد، وهى تغيرات متلاحقة أعانهم على التعبير عنها ثراء اللغة العربية بالمفردات المتقاربة والمتفاوتة فى المعنى والدرجة فى الوقت نفسه، وقد أثبتت اللغة العربية أن لديها قدرة كبيرة فى التعبير عن أدق الخلجات النفسية والحالات الوجدانية عند قوم تغلغلوا فى باطن النفس وشعَّبوا أدق أجزائها وحللوا ألطف أسرارها... والجدير بالذكر أن التجارب الصوفية رغم اختلافها من صوفى لآخر يمكن رصدها ودراستها عن طريق دراسة المصطلح [المصطلحات] الصوفي.

ورغم اختلاف الصوفية فى تعريفهم للمصطلح الواحد إلا أن هذا الأمر لا يعد سلبيًا بل أمرًا إيجابيًا لأنه أدى إلى ثراء التصوف الإسلامي بمادة هائلة عَبَّرت عن العديد من التجارب المختلفة هذا من جهة. ومن جهة أخرى ربما يؤدي بنا هذا الاختلاف والتعدد إلى التشتت. نظرًا لعدة أمور، **أولها:** إن المصطلح الواحد قد تتعدد معانيه من صوفي لآخر، بالإضافة إلى أنه قد يأخذ عدة أبعاد ومعاني لدى المتصوف نفسه. **ثانيًا:** أن بعض هذه المصطلحات قد يتساقط بعضها عند صوفي ليظهر عند آخر. **ثالثًا:** لم تقدم الدراسات السابقة تفاصيل دقيقة وواضحة المعالم والأركان لتاريخ ظهور كل مصطلح من المصطلحات الصوفية على حده [اللهم إلا بعض المصطلحات القليلة كمصطلح المحبة]، مما يجعل هناك صعوبة بالغة فى تتبع نشأة وتطور كل مصطلح.

ويمكن القول بوجود ارتباط وثيق بين نشأة وتطور حركة الزهد من جهة وظهور وتطور ما يسمى بالمصطلحات الصوفية من جهة أخرى. إذا اعتبرنا أن

تاريخ التصوف الإسلامي بأكمله أشبه بخارطة عليها بعض مقامات وأحوال هذا الطريق التي تظهر بمستويات ودرجات متفاوتة.

ولعل أبرز دليل على ذلك هو نشأة وتطور العديد من المصطلحات الصوفية المركزية التي شكلت مبادئ التصوف بصفة فى القرنين الأول والثاني الهجريين. فنجد الحسن البصرى المتوفى 110هـ يهتم بـ (الزهد والخوف وغيرهما من المصطلحات)، والإمام جعفر الصادق المتوفى سنة 148هـ يهتم بـ (الزهد والمعرفة وغيرهما من المصطلحات) وإبراهيم بن أدهم المتوفى 161هـ يهتم بـ (التوبة ثم المحبة)، ثم تتطور فكرة المحبة وتأخذ أبعادًا أعمق لدى رابعة العدوية المتوفاة 185هـ مضيفة عنصرا جديدا هو الحب الذى يتخذ منه الإنسان وسيلة إلى مطالعة جمال الله الأزلى[6]. ونجد شقيق البلخى المتوفى 194هـ يهتم بـ (بترتيب بعض المصطلحات الصوفية ترتيبًا متدرجًا من الأدنى إلى الأعلى بشكل مقصود ربما يأتي لأول مرة في تاريخ التصوف)، ثم يأتي أبو سليمان الداراني المتوفى 215هـ ليهتم بمصطلح (المعرفة).. والعديد والعديد من الشخصيات والأفكار الهامة فى تلك المرحلة. وتلك هي أهم المصادر التى استسقى منها صوفية القرون التالية بعض أفكارهم المرتبطة بالتصوف بصفة عامة. ليأتي بعد ذلك القرن الثالث الهجري وتظهر فيه بعض المصطلحات الصوفية المترابطة مع بعضها البعض كما ظهر مع الجنيد البغدادي ت 298هـ الذي ربط بين (الميثاق والفناء والتوحيد) في منظومة واحدة يصعب فهم بعضها دون الأخر.

وبعد ذلك يأتى القرنين الرابع والخامس الهجريين ونجد أن صوفية هذه الفترة قد غلب عليهم طابع تدوين آراء السابقين عليهم. فصحيح أن بعض صوفية

[6] أبو الوفا التفتازانى، مدخل إلى التصوف الإسلامى، ص86.

(ISSN : 2536 - 9555)

القرن الثالث الهجرى قد دونوا بعض أعمالهم إلا أن أغلبهم لم يهتم بالتدوين مثل (سرى السقطى المتوفى251هـ/ أبو يزيد البسطامى261هـ /رويم بن أحمد البغدادى المتوفى 299هـ/ أبو الحسين النورى المتوفى 295هـ) والعديد والعديد من صوفية القرن الثالث. أما صوفية القرنين الرابع والخامس فقد اهتموا بتدوين التراث الصوفى السابق عليهم. ومن هنا أطلق الصوفية أنفسهم على هذه المرحلة اسم "**مرحلة المصنفات الصوفية**". وهنا تظهر إشكالية هامة هل قام صوفية القرنين الرابع والخامس بتدوين آراء السابقين فقط؟ أم أنهم سجلوا آراء السابقين وفى الوقت نفسه عرضوا تجاربهم الصوفية؟ وهنا نلاحظ شيئًا هامًا هو أن الأقوال الصوفية [المادة الخام التي احتوت على المصطلحات الصوفية] التى جمعها أغلبهم كانت متشابهة إلى حد التطابق في بعض الأحيان، ليس هذا فحسب بل سنجد أبوابًا كاملة تتطابق فى النصوص والمصطلحات والعبارات والأقوال (مثل تشابه السراج الطوسى المتوفى 387هـ فى كتابه ***اللمع*** مع عبد الملك الخركوشى المتوفى 407هـ فى كتابه ***تهذيب الأسرار*** بل يتجاوز الأمر التشابه ليصل إلى التطابق أحيانا/ تشابه أبو بكر الكلاباذى المتوفى سنة 380هـ فى كتابه ***كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف*** مع كتاب ***اللمع*** للسراج الطوسى/ تشابه عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة 465هـ فى ***الرسالة القشيرية*** مع معاصره أبو الحسن الهجويرى فى كتابه ***كشف المحجوب***) والعديد والعديد من نماذج التشابه والتطابق بسبب حرصهم على تدوين آراء السابقين، إلا أن الأمر المهم هنا أنه رغم التشابه فى الأقوال والمصادر [على احتوت على أهم المصطلحات الصوفية] الذى قد يصل كما ذكرنا إلى حد التطابق إلا أن لكل منهم تجربته الصوفية الذوقية الخاصة والفريدة. وتلك التجربة الخاصة بكل صوفى من صوفية القرنين الرابع والخامس

الهجريين يمكن رصدها وملاحظتها بوضوح عند دراسة موقفه من كل مصطلح من المصطلحات الصوفية.

المنهج المستخدم في الدراسة: سوف أعتمد على عدة مناهج أبرزها المنهج التاريخى: فى وضع الشخصيات والمصطلحات فى سياقها التاريخي من أجل محاولة الكشف عن ظهور وتطور بعض العناصر المرتبطة بالدراسة. المنهج التحليلى: لمحاولة تحليل المصطلحات والأفكار والنصوص من أجل محاولة الكشف عن أبعادها المتنوعة. المنهج الدلالى (Semantics)[7]: وسنعتمد عليه بشكل أساسي فى محاولة للكشف عن عدة أمور أهمها؛ الفرق بين المعنى الأساسي (Basic Meaning) والمعنى العلاقي (Relational Meaning) الناتج عن دخول المصطلحات فى علاقات متعددة داخل نظام واحد وصولا إلى أبعادها وأجزاءها المختلفة التي قد تشكل عدة حقول دلالية (Semantic Field) تبرز النظام المفهومي للأفكار. بالإضافة إلى أننا سنعتمد أحيانا على المنهج الإحصائي والمنهج المقارن والمنهج النقدي.

فروض الدراسة: هل شهدت حركة الزهد نشأة بعض المصطلحات الصوفية؟ وإن كانت الإجابة بنعم فما هي صورة تلك المصطلحات؟ وهل جاءت

[7] سأعتمد فى الخطوات المنهجية المرتبطة بالمنهج الدلالي على كتابات كلا من:

- Toshihiko, Izutsu, ***God and Man in The Koran***, The KEIO Institute of Cultural, Tokyo, 1964.
- Ullmann, Stephen, ***Semantics, an Introduction on The Meaning***, Oxford, Blackwell, 1962.
- Palmer, F. R., ***Semantics***, second edition, Cambridge, 1981.

(ISSN : 2536 - 9555)

هـذه المصـطلحات منعزلـة أم مترابطـة مـع بعضـها الـبعض؟ وهـل أثـرت تلـك المصطلحات على نشأة وتطور التصوف الإسلامي؟

1- **التعريف بالحسن البصرى (ت 110 هـ/ 728م):**

هو أبو سعيد حسن بن أبى الحسن يسار ميسانى البصرى. يقال إنه ولد فى المدينة سنة 21هـ/642م أو 22هـ/643م والتاريخ الأخير هو الأرجح، رغم أنه مشكوك فيه[8]. وتشير بعض المصادر إلى أن أباه كان اسمه بيروز، مما يرجِّح أنه كان فارسيَّ الأصل[9]. سُبيت أسرة الحسن البصرى فى مَيْسان لما سقطت هذه الناحية التى كانت تقع أسفل البصرة فى أيدى المسلمين، ونُقِل من بين الأسرى إلى المدينة المنورة، مما يدل على أنه ولد فى البصرة. ويذكر أن أمّ الحسن كانت مولاة لأمّ سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم[10]. شاهد الحسن وهو فى

---

[8] لترجمة حياته، انظر: حلية الأولياء131/2، البداية والنهاية270/7، كشف المحجوب294/1، الكواكب الدرية90/1، تذكرة الأولياء213/1، الطبقات الكبرى51/1.

[9] Knysh, Alexander, ***Islamic Mysticim a Short History***, Brill, Leiden, 2000, p.10-11.

[10] يذكر أن أمّ الحسن كانت مولاة لأمّ سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويروى أن أُمَّه كانت ربما غابت، فبكى الصبى، فتعطيه أمُّ سلمة ثدَيها تعلِّله به حتى تجىء أُمَّه... وردت هذه الرواية فى العديد من المصادر، انظر: طبقات ابن سعد ج7 ص157، وفيات الأعيان لابن خلكان ج1 ص354، فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء ج1 ص24، عبد الرؤوف المناوى، الكواكب الدرية ج1، ص92..

كما نقلت هذه الرواية دون تعليق فى العديد من الدراسات انظر: نجلاء على حسين، الزهد عند عبد الله بن المبارك ص52؛ محمود عبد الرحمن سنبل، الخوف والرجاء عند زهاد وعباد وصوفية القرنين الأول والثانى الهجريين، ص199؛ مصلح سيد بيومى، الحسن البصرى من عمالقة الفكر، ص141- 142.

الرابعة عشرة من عمره استشهاد عثمان بن عفان (سنة35هـ/655م) وما أعقب هذا الحادث من حروب أهلية (الفتنة الكبرى) أدت إلى استشهاد علىّ بن أبى طالب وبداية خلافة معاوية بن أبي سفيان فى دمشق (سنة41هـ/661م) وبطش بنى أمية على الأنصار فى المدينة والخوارج فى العراق[11]. وشارك الحسن فى جهاد الأمة فشهد فتح كابول (عاصمة أفغانستان حاليا)، وبعد ذلك استقر بالبصرة، ولكنه لم يشارك فى الثورات الدامية مع الأنصار والخوارج ضد بنى أمية حفاظًا منه على وحدة الأمة[12]. ومع ذلك فإنه لم يسكت أمام طغاة بنى أمية، وإنما رفع صوته ضد الظلم والجور والاستبداد غير خائف من بطش الخلفاء وولاتهم مما جعل المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون يصفه بأنه كان يمثل النزعة النقدية الواقعية التى هى على النقيض تمامًا من الموروث الاستسلامى وقتها[13]. توفى الحسن البصرى عام 110هـ/728م، وتذكر المصادر التاريخية خروج أغلب أهل البصرة فى جنازته لتشييعه إلى مثواه الأخير. ويأخذ الحسن البصرى مكانًا مرموقًا فى الأوساط الصوفية، فقد ساهم بشكل مؤثر فى حركة الزهد وتطورها[14]، وما

أما عبد الرحمن بدوى فيشك فى هذه الرواية ويصفها بأنها ضرب من تعظيم فصاحة الحسن البصرى، لمزيد من التفاصيل انظر: عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف، ص173. ص153.

[11] جوزيبى سكاتولين وأحمد حسن، التجليات الروحية فى الإسلام، ص60- 61.

[12] راجع: الأصفهاني، حلية الأولياء، جـ2، ص139.

Knysh, ***Mysticism***, p. 10-13.

[13] Louis Massignon, ***Essai sur les origines du lexique téchnique de la mystique musulmane***, Paris, Cerf, 1999 (1ed. Geuthner, 1922; Vrin, 1954). P.176- 177.

[14] Arthur John Arberry, ***Sufism. An Account of the Mystics of Islam***, London, 1950, p,33.

(ISSN : 2536 - 9555)

زالت كلماته تدوى فى الأشعار العربية والفارسية والتركية والباشتية[15]، ليس هذا فحسب بل امتد تأثيره إلى أكثر من ذلك كما يقول المستشرق الإنجليزى سبنسر ترمينجهام **Spencer Trimingham** :إن اسم الحسن البصرى يدخل ضمن أقدم سلسلة صوفية محفوظة فى التاريخ[16]. كما وصفه المستشرق السويدى **Tor Andrae** تور آندريه قائلا: "الحسن البصرى أشهر العباد والزهاد فى القرن الأول الإسلامى على الإطلاق، وإن أفكاره بحق تستحق التأمل"[17].

2- **مصادر آراء الحسن البصرى**:

1) **القرآن والسنة:** قبل مناقشة وتحليل آراء الحسن البصرى، نعتقد بأهمية معرفة مصادر آراء الحسن البصرى للوقوف على معرفة العوامل التى أثرت فى نشأة بعض مصطلحات التصوف الإسلامى لديه. ويمكننا بسهولة أن نلمح تأثير المصدر الإسلامى (القرآن والسنة) فى أقوال الحسن البصرى، وهنا ينبغى أن نتذكر أن الحسن البصرى يعد أول من قام بتفسير لبعض الآيات من القرآن

---

[15] آنا مارى شيمل، الأبعاد الصوفية فى الإسلام وتاريخ التصوف، ص39.

[16] يقول سبنسر ترمينجهام Spencer Trimingham: إن أقدم سلسلة صوفية محفوظة هى التى ذكرها جعفر الخلدى (ت:348هـ/995م) وقبلها ابن النديم فى كتابه الفهرست، وهى طريقة الجنيد البغدادى، عن سرى السقطى، عن معروف الكرخى، عن فرقد السبخى، عن الحسن البصرى، عن على بن أبى طالب، عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، لمزيد من التفاصيل، انظر:

J. Spencer Trimingham, ***The Sufi Orders in Islam***, Oxford University Press, Oxford, 1971, p . 161.

[17] Tor, Andrae, ***In The Garden Of Myrtles***, State University of New York, 1987. p.33.

الكريم[18]، ويمكن تأكيد ذلك بسرد العديد من الآيات القرآنية التى فسرها والتي يمكن أن نجدها فى ثنايا كتب التفسير[19]. كما أن الحسن البصرى قد أسند بعض الأحاديث النبوية نقلا عن بعض الصحابة والتابعين، ولعل ما ذكره أبو نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء خير دليل على ذلك[20]. كما يوضح الدكتور عبد الرحمن بدوى أن الحسن البصرى كان يتمتع بالنزعة النقدية فى نقده لبعض الأحاديث[21]. وعلى أية حال يكثر استشهاد الحسن البصرى بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى أغلب الموضوعات التى يناقشها.

2) **<u>بعض زهاد القرن الأول الهجرى</u>**: ينبغى أن نتذكر أن هناك بعض السابقين من زهاد البصرة قد سبقوا الحسن البصرى فى الحديث عن بعض الموضوعات

---

[18] بتصرف من: عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف، ص173.

[19] تقدم لنا كتب التفسير العديد من الآيات التى فسرها الحسن البصرى، لمزيد من التفاصيل انظر: تاريخ الطبرى، ج2، ص290، طبقات ابن سعد، ج7، ص125–126. وقد قدم الحسن البصرى فى تفسيره لبعض الآيات القرآنية العديد من الملاحظات عن: تفنيد الحسن البصرى لبعض الأساطير التى حكيت حول أبناء آدم الأول– ملاحظاته الخاصة بإبراهيم الخليل عليه السلام– ملاحظاته عن هاروت وماروت وقوله إنهما لم يكونا ملكين هبطا بابل، بل كانا أميران غريبان عن العرب. لمزيد من التفاصيل انظر: ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، 223،264.

[20] يقدم أبو نعيم الأصبهانى إسناد الحسن البصرى لـ (10) أحاديث نبوية فى حلية الأولياء، للإطلاع على نصها الكامل انظر: حلية الأولياء، ج2، ص159–161.

[21] روى أحد المحدثين، وهو أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن الشمس والقمر فى يوم القيامة ستطرحان مثل ثورين فى النار. فقال الحسن: لأى ذنب ارتكبا؟ فقال المحدث: هذا ما روى عن النبى. فصمت الحسن، بينما صاح الحاضرين: صدق الحسن، لأى ذنب؟... لمزيد من التفاصيل راجع: ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص121... نقلا عن: عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف الإسلامى، ص174.

(ISSN : 2536 - 9555)

الزهدية، منهم على سبيل المثال: الأحنف بن قيس (ت:67هـ/687م) من عباد البصرة تحدث عن الخوف والمحاسبة، وهناك العديد من عبارات الأحنف بن قيس تدل على ذلك[22]. وقد ذهب الدكتور على سامى النشار إلى القول: بأن الأحنف بن قيس هو أول من وضع للبصريين مقام الخوف ومقام المحاسبة، وسيظهر ذلك بوضوح لدى الحسن البصرى... ولا شك أن الحسن البصرى قد سار على خطى الأحنف ابن قيس وهو يضع أسس الخوف ومحاسبة النفس، كما أن الحسن قد روى مرارًا عن الأحنف[23]. كما نجد أيضا مطرف بن عبد الله (ت:88هـ/707م) الذى يذكر عنه أنه نهى الناس عن فتنة عثمان وفتنة معاوية، ويذكر عنه أنه أول من تحدث عن الرضا بقوله: "اللهم رضيت لنفسى ما رضيت لى"، كما قال: "وسيلة العبادة إلى الله الخوف" كما يذكر أن الحسن البصرى كان يحضر مجلسه[24]. وربما تأثر الحسن البصرى بزهاد آخرين من زهاد القرن الأول الهجرى السابقين عليه، لكن ضعف المصادر التاريخية يقف عائقًا دون إثبات ذلك من عدمه.

3- **أقوال الحسن البصرى كما وردت فى مصادرها الأصلية** (**رؤية نقدية**):

قبل البدء فى رصد وتحليل المصطلحات الصوفية عند الحسن البصرى نعتقد بأهمية تجميع أقواله حتى نستطيع أن ننظر إليها ونعكف على تحليلها ودراستها من أجل استخراج أهم المصطلحات الصوفية المركزية لديه إن وجدت،

[22] للإطلاع على بعض أقوال الأحنف بن قيس، انظر: عبد الرحمن الجوزى، صفة الصفوة، ج3، ص133.

[23] على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، ص115– 116.

[24] لمزيد من التفاصيل راجع: أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص198 وما بعدها.

وحقيقة كان من الصعب تجميع أقوال وعبارات الحسن البصرى فى الزهد نظرا لانتشارها فى العديد من المصنفات الصوفية، ليس هذا فحسب، بل إن الأخبار المنقولة عنه قد سيطر عليها الجانب الأسطوري إلى حد كبير، ولعل أقدم المصادر فى ترجمته هو ما قدمه ابن سعد فى طبقاته، والأصفهاني فى حلية الأولياء، ثم نمّى الأسطورة وزينها بخياله الخاص فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء[25]. وبصفة عامة قمت بتجميع أغلب أقوال الحسن البصري من المصنفات التالية:

1) **التعرف لمذهب أهل التصوف:** لأبى بكر الكلاباذى. حيث ورد ذكر اسم الحسن البصري أربع مرات فى كتاب التعرف، كما أورد الكلاباذي له ثلاث عبارات. لعل أهمها قوله: وقال الحسن البصري: لقد أدركت سبعين بدريا، ما كان لباسهم إلا الصوف[26]. فلو صحت هذه العبارة (ويصعب تصديقها) فإن ذلك يعني بداية ظهور فريق أو مجموعة من الناس اشتهرت بلبس الصوف فى القرن الأول الهجري، ومن ثم سيطلق عليهم الصوفية.

2) **كتاب قوت القلوب:** لأبي طالب المكى. حيث ورد اسم الحسن البصري بهذا الكتاب سبعًا وعشرين مرة، كما أورد المكي له إحدى وعشرين عبارة من أقواله. ليس هذا فحسب بل يرى المكي أن الحسن البصري هو إمام الصوفية فى علمهم وقد عبر عن ذلك فى خمسة مواضع على وجه

[25] صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، ص216.
[26] الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص14.

(ISSN : 2536 - 9555)

التحديد[27]. بالإضافة إلى ذلك يذكر أبو طالب المكي رواية الحسن البصري لحديث ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: روينا عن الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، فعلم باطن في القلب فذاك هو النافع[28]، وتأتي أهمية العبارة الأخيرة في بداية التفرقة بين الظاهر والباطن لدى صوفية الإسلام.

3) **كتاب اللمع:** لأبى نصر السراج الطوسى. حيث ذكر اسم الحسن البصري ثلاث مرات، كما أورد له عبارة واحدة فقط.

4) **كتاب تهذيب الأسرار:** حيث أورد عبد الملك الخركوشي خمس عبارات منسوبة للحسن البصري. ومن بين هذه العبارات عبارة فى منتهى الخطورة وهي قول الحسن البصري: الورع على ثلاثة مقامات..[29]. فلو صحت نسبة هذه العبارة للحسن البصري (ويصعب تصديق ذلك) فمعنى ذلك وجود التقسيم الثلاثي لبعض المصطلحات الصوفية فى النصف الثاني من القرن الأول الهجري وهذا أمر يصعب قبوله.

---

[27] يرى أبو طالب المكي أن الحسن البصري هو إمام الصوفية في علمهم، وقد عبر عن ذلك فى 5 مواضع حيث قال: الحسن البصري إمامنا فى هذا العلم، المكي، قوت القلوب، ج1، ص183. وفى موضع آخر قال: وعنه حملوا علوم القلوب، جـ1، ص184.. وفى موضع ثالث نجده يقول: وهو أول من أظهر هذا العلم وفتق الألسن به إلى وقت أبي القاسم الجنيد.. ج1، ص232... وفى موضع رابع يقول: إمام الأئمة الحسن البصري، ج1، ص246.. وفى موضع خامس يقول: الحسن البصري إمام العلماء..ج1، ص317.

[28] لم أجد الحديث فيما لدي من مصادر. أبو طالب المكي، قوت القلوب، ج1، ص171.

[29] عبد الملك الخركوشي، تهذيب الأسرار، ص109– 110.

5) **كتاب حلية الأولياء:** لأبى نعيم الأصفهانى (جـ2، ص ص:131-162). وتعتبر الحلية فى هذا الأمر من أكثر المصادر الموثوق فيها. حيث لا نجد عبارة منسوبة للحسن البصري خارجة عن إطارها التاريخي، أو متجاوزة بداية القرن الثاني الهجري. بمعنى أن العبارات التي أوردها أبو نعيم الأصفهاني تحت اسم الحسن البصري يمكن أن تعبر بحق عن موقف الحسن البصري تجاه الظروف السياسية والاجتماعية والزهدية فى النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

6) **الرسالة القشيرية:** حيث أورد عبد الكريم القشيري ثمانية أقوال للحسن البصري. وقد ارتبطت هذه الأقوال بالوعظ والزهد والخوف من الله عز وجل. ورغم قلة الأقوال التي قدمها القشيري عن الحسن البصري إلا أنها لم تخلو من الجانب الأسطوري[30].

7) **كتاب إحياء علوم الدين:** يقول الإمام الغزالي بالنص: كان الحسن يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها

[30] سمعت أبا الحسن البصري يقول: كان ابن عبادان رجل أسود فقير يأوي إلى الخرابات، فحملت معي شيئاً وطلبته، فلما وقعت عينه عليَّ تبسم، وأشار بيده إلى الأرض، فرأيت الأرض كلها ذهباً يلمع، ثم قال: هات ما معك، فناولته، وهالني أمره، وهربت. [القشيري، الرسالة القشيرية، ج1، ص162]. وفى موضع آخر نجد: ورؤي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتحة.. وكأن منادياً ينادي: ألا إن الحسن البصري قدم على الله تعالى وهو عنه راض. [القشيري، الرسالة القشيرية، ج1، ص177]. وربما تخرج هذه الروايات من الجانب الأسطوري إلى إمكانية النظر فى دلالتها وإشارتها الرمزية.

(ISSN : 2536 - 9555)

وخطر الآخرة وأهوالها[31]. وعلى آية حال فقد أورد الإمام الغزالي اسم الحسن البصري فى كتابه الإحياء إحدى وعشرين مرة، كما أورد له ثلاث عشرة عبارة منها رسالة كتبها الحسن البصري إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز فى موضوع القدر.

8) **كتاب تذكرة الأولياء:** لفريد الدين العطار. (ج1، ص ص18–29) يمتلئ ما قدمه العطار عن الحسن البصري بالحكايات ذات الطابع الأسطوري، كما أن هذه الحكايات لا نجدها فى المصادر الصوفية السابقة على العطار، بالإضافة إلى أنها تتجاوز الوقائع التاريخية للقرنيين الأول والثاني الهجريين.

9) ... وبعض المصادر الأخرى.

ويجدر الانتباه في أثناء دراسة وتحليل هذه الأقوال خاصة؛ أن شخصية الحسن البصرى تكاد تكون شخصية شبه أسطورية نظرًا لما أُحيط به من مغالاة فى صورة الزاهد أو الفقيه أو العالم، وكما يقول الدكتور محمد على أبو ريان: يحتاج كل ما أثر عنه من تراث إلى وقفة نقدية تستبين معها الأمور[32]. ونعتقد بضرورة مضاعفة هذا الانتباه خاصة مع المصادر المتأخرة كـ "تذكرة الأولياء" لفريد الدين العطار على سبيل المثال. وبفحص هذه المصادر وجدنا ما يلى:

[31] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص37.

[32] محمد على أبو ريان، الحركة الصوفية فى الإسلام، ج2، ص38.

جدول رقم (1)

المصطلحات الصوفية المركزية لدى الحسن البصرى

المصطلح	العدد	المصطلح	العدد	المصطلح	العدد	المصطلح	العدد
الحزن	18	الزهد	6	المحاسبة	10	الخوف	16
النيه	3	البكاء	6	التفكر	3	التقوى	2

ومن الجدول السابق يبدو أن أكثر ثلاثة مصطلحات صوفية مركزية لدى الحسن البصرى هى: (الحزن، الخوف، المحاسبة) وتأتى باقى المصطلحات لتدخل فى تفاعلات وعلاقات لغوية مع هذه المصطلحات الثلاثة. كما أن هذه المصطلحات الثلاثة تدخل فى تفاعلات وتداخلات مع بعضها البعض. لمزيد من التفاصيل انظر الشكل التالى:

شكل رقم (1)

المصطلحات المركزية ومدى تداخلها بعضها البعض

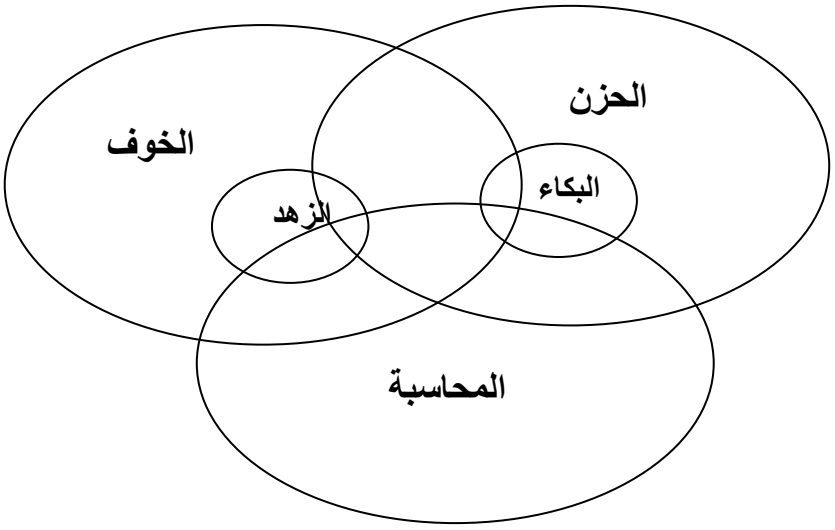

(ISSN : 2536 - 9555)

ومن هنا يمكننا أن نلاحظ بداية ظهور لبعض المصطلحات المهمة لدى الحسن البصرى مثل (الحزن، الخوف، المحاسبة، الزهد، النية، التفكر، التقوى..) وستصبح هذه المصطلحات فيما بعد من المصطلحات الأساسية والمركزية فى التصوف الإسلامى بصفة عامة، كما يمكننا أيضا أن نلاحظ أن هذه المصطلحات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمصطلحين مركزيين لدى الحسن البصرى وهما مصطلح (الخوف) ومصطلح (الحزن). فهذه المصطلحات تدخل فى علاقات وتفاعلات وتداخلات دلالية بشكل واضح مع مصطلحى (الخوف والحزن) فى أغلب الأحيان. ولتوضيح ذلك انظر:

الشكل رقم (2)

بنية مصطلحات الزهد عند الحسن البصرى

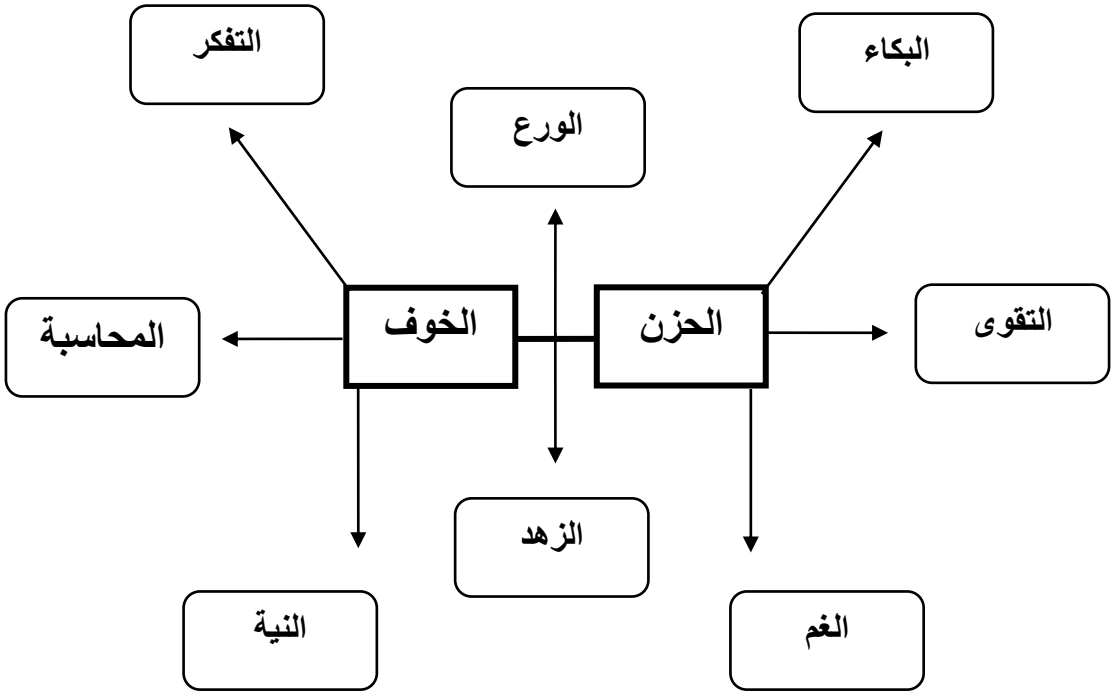

4- **الحسن البصرى ونشأة بعض المصطلحات الصوفية**:

<u>أولا– مصطلحي [المقامات والأحوال] المقام والحال</u>•: ورد مصطلح "مقام" بلفظه لدى الحسن البصرى ثلاث مرات فقط [حسب المصادر التى تمكنت من الاطلاع عليها] فى قوله: فإن كان بعد التوبة السؤال فأين مقامى؟[33]. وأيضا فى قوله: الورع على ثلاثة مقامات[34]. ومن الصعب تصديق نسبة هذه العبارة للحسن البصري. كما ورد أيضا مصطلح مقام فى قوله: إنى أخوفك مقاما خوفكه الله تعالى (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[35] [سورة إبراهيم، الآية: 14]. أى أن مصطلح "**مقام**" هنا قد ارتبط بشكل مباشر بمصطلحي "**التوبة**" و"**الخوف**"، كما ورد مصطلح "**حال**" بنصه أيضا مرة واحدة فقط وارتبط ارتباطًا وثيقًا بمصطلح "**الحزن**"[36]، وربما ورد مصطلح "**الحال**" مرة ثانية بمعناه وليس بلفظه فى عبارة

• **ركزت أغلب المصنفات الصوفية على مصطلحي المقام والحال، وكذلك اهتمت تلك المصنفات بتقديم تعريف لكل للمقامات والأحوال؛ فعرفوا المقام:** ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب؛ مما يتواصل إليه بنوع تصُّرفٍ، ويتحقق به بضرب تطلُّب، ومقاساة تكلف. فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له. انظر: الطوسى، كتاب اللمع ص411، الخركوشى، تهذيب الأسرار ص434، القشيري، الرسالة القشيرية ص204. المقام: عبارة عن إقامة الطالب على أداء حقوق المطلوب بشدة اجتهاده وصحة نيته. ولكل واحد من مريدى الحق مقام .... الهجويري، كشف المحجوب، جـ2 ص616. **وعرفوا الحال:** وهو نازلة بالعبد فى الخير فيصفوا له فى الوقت حاله ووقته. انظر: الطوسي، كتاب اللمع ص412، الخركوشي، تهذيب الأسرار ص434، القشيري، الرسالة القشيرية ص206، الحال: وارد على الوقت، يزينه، مثل الروح للجسد.. كشف المحجوب ج2ص615.

[33] عبد الملك الخركوشي، تهذيب الأسرار، ص96.

[34] المرجع السابق، ص109– 110.

[35] أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص149.

[36] أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص132.

(ISSN : 2536 - 9555)

الحسن البصرى: إن المؤمن يصبح حزينا ويمسى حزينا وينقلب باليقين فى الحزن[37].

ثانيًا– مصطلح الخوف: اشتهر الحسن البصرى لدى مؤرخى التصوف الإسلامى بحديثه عن مصطلح الخوف، ولعل أبرز دليل على ذلك ما قاله كل من:

1) أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء يصف الحسن البصرى بأنه: "حليف الخوف والحزن، أليف الهم والشجن "[38].

2) أبو الحسن الهجويرى فى كتابه كشف المحجوب يصف الحسن البصرى بقوله: "كان صبره فى البلاء أو الطاعة ناطق عن خوفه من نار جهنم"[39].

3) فريد الدين العطار فى كتابه تذكرة الأولياء يصف الحسن البصرى بقوله: "كان الحزن والخوف من الحق قد شمله بصفة دائمة"[40].

4) عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه صفة الصفوة يصف الحسن البصرى بقوله: "ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما"[41].

5) عبد الرحمن الشعرانى فى كتابه الطبقات الكبرى يصف الحسن البصرى بقوله: "كان قد غلب عليه الخوف حتى أن النار لم تخلق إلا له"[42].

---

[37] المرجع السابق، ج2، ص133.

[38] المرجع السابق، ج2، ص: 132– 133.

[39] الهجويرى، كشف المحجوب، ج1، ص294.

[40] أبى نعيم الاصبهانى، حلية الأولياء، ص: 132 – 133.

[41] فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، ج1، ص213.

هذا بعض ما وصف به الحسن البصرى فى بعض المصنفات الصوفية وكتب الطبقات والتراجم. أما لو أردنا البحث عن ذلك داخل أقوال الحسن البصرى نفسه، لوجدنا أن ذلك يظهر جليا وبيسر عن طريق قراءة وتحليل أقوال الحسن البصرى فعباراته فى الخوف متعددة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجده يقول: والله لئن تصحب أقواما يخوفونك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب [أقواما] يؤمنونك حتى يلحقك الخوف[43]. ونجده فى موضع ثان يربط ربطًا مباشرًا بين مفهوم الخوف ومفهوم الرجاء، حيث يقول: الخوف والرجاء مطيتا المؤمن[44]. كما نجده فى موقف ثالث يتخذ مفهوم الخوف دافعا للإنسان إلى المحاسبة، حيث يقول: يا ابن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك فتصلحه، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك،.. إنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة[45]. وفى موضع رابع يربط ربطًا مباشرًا بين الخوف والحزن وفى ذلك نجده يقول: والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به؛ ليطولن فى الدنيا حزنك، وليشتدن فى الدنيا خوفك[46]. وفى موضع خامس يربط بين الخوف والإيمان حين يقول: المؤمن أحسن الناس عملاً وأشد الناس خوفًا[47]، وفى نفس المعنى نجده

---

[42] عبد الرحمن الشعرانى، الطبقات الكبرى، ج1، ص51.
[43] الاصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص139.
[44] المرجع السابق، ج2، ص147.
[45] الجوزى، صفة الصفوة، ص156.
[46] الاصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص139.
[47] المرجع السابق، ج2، ص153.

(ISSN : 2536 - 9555)

يقول: والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليشتدن فى الدنيا خوفك[48].
وفى موضع سادس يربط بين الخوف والبكاء فيقول: أبكاهم الخوف من الله[49].
وهناك العديد من العبارات الأخرى التى يتحدث فيها عن الخوف، ويمكن تلخيص ذلك فى الحقل الدلالى التالى:

شكل رقم (3)

حقل دلالى يمثل مصطلح الخوف وعلاقاته بالمصطلحات الأخرى

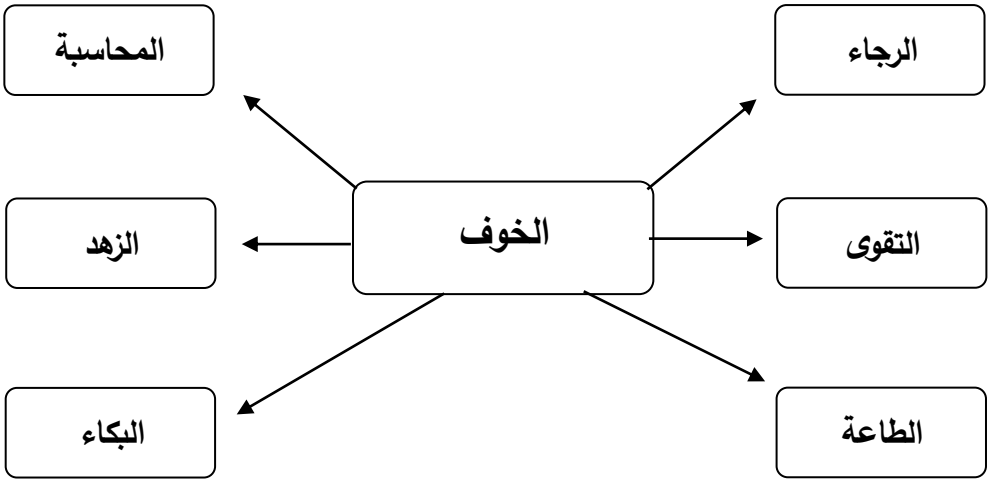

وعلى أية حال لم يكتف الحسن البصرى بالحديث عن مفهوم الخوف بشكل نظرى، بل كما يقول المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون: "[أولاً] إنه قد ربط بين مفهوم الخوف وآرائه السياسية، حيث إن التعامل مع الله قائم على الطاعة لله وهى أصل كل سلطة، وفى حالة تعارض السلطة مع تعاليم الله يصبح من الواجب

[48] المرجع السابق، ج2، ص134.
[49] المرجع السابق، ج2، ص153.

تقديم طاعة الله، [ثانيًا] وفى نفس الوقت رفض عمل أى ثورة أو عصيان من أجل الحفاظ على وحدة الأمة"[50]. ولعل أبرز دليل على صدق الشق الأول من قول لويس ماسينيون هو رسالة الحسن البصرى إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت:101هـ/720م)[51]، ونصيحة الحسن البصرى إلى عمر بن هبيرة[52]، كما أن الحسن انتقد بجسارة الخليفة الأموي في زمانه وكذلك انتقد الولاة الأمويين للعراق[53]. كما أن أبرز دليل على صدق الشق الثاني من قول ماسينيون هو موقف الحسن البصرى من فتنة ابن الأشعث[54].

---

[50] Louis Massignon, ***Essai sur les origines***. P.176– 177.

[51] للإطلاع على النص الكامل لرسالة الحسن البصرى إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، انظر: الأصبهانى، حلية الأولياء، ص134 وما بعدها.

[52] لما ولى عمر بن هبيرة العراق، جاء بالحسن وقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتبا أعرف أن فى إنفاذها الهلكة فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله فهل ترى لى فى متابعتى إياه فرجا!؟ فقال الحسن: يا ابن هبيرة: يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك... يا ابن هبيرة: إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ولا يعصمك يزيد من الله عز وجل... إنى أخوفك مقاما خوفكه الله تعالى فقال: (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) [سورة إبراهيم، الآية: 14].. لمزيد من التفاصيل، انظر: أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ص149.

[53] Knysh, ***Mysticism***, p. 11.

[54] لما كانت الفتنة: فتنة ابن الأشعث إذا قاتل الحَجَّاج بن يوسف انطلق عقبة بن عبد الغافر وأبو الجوزاء وعبد الله بن غالب فى نفر من نظرائهم فدخلوا على الحسن فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول فى قتال هذا الطاغية الذى سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة وفعل وفعل؟ قال: وذكروا ما فعل الحجاج، قال: فقال الحسن: "أرى أن لا تقاتلوه. فإنها إن تكن عقوبةً من الله فما أنتم برادّى عقوبةِ الله بأسيافكم، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين". قال: فخرجوا من عنده وهم يقولون نطيع هذا العلج! [العلج: تعنى الرجل الضخم من

(ISSN : 2536 - 9555)

ثالثًا– مصطلح المحاسبة: تحدث الحسن البصرى مرارًا وتكرارًا عن المحاسبة. فقد دعا إلى محاسبة النفس والشعور العميق بالمسئولية حينما قال: يا ابن آدم اذكر قوله تعالى (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) [سورة الإسراء، الآية:13–14] جعلك الله حسيب نفسك"[55]. ويوضح الدكتور عبد الرحمن بدوى أن الحسن البصرى جعل المحاسبة تكون بالرجوع إلى كتاب الله ومراجعة ما فيه مع ما يفعله الإنسان[56] حين قال الحسن: رحم الله رجلا خلا بكتاب الله، فعرض عليه نفسه، فإن وافقه حمد ربه، وسأله الزيادة من فضله، وإن خالفه أعتب وأناب، ورجع من قريب"[57]. كما ربط الحسن البصرى بشكل مباشر بين مصطلح المحاسبة ومبدأ إصلاح الإنسان نفسه قبل أن يأمر بإصلاح عيوب غيره حين قال: يا ابن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك فتصلحه، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك.[58] وبهذا كان يرمى الحسن البصرى إلى صلاح الفرد عن طريق مراقبة النفس، واعتبار إصلاح الفرد بداية أساسية لإصلاح الجماعة، فلا صلاح للجماعة قبل

كفار العجم، وبعضهم يطلقها على الكفار عمومًا، انظر: لسان العرب، مادة علج] لمزيد من التفاصيل حول فتنة ابن الأشعث انظر: محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج26، ص163–164؛ عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف الإسلامى، ص154؛ جوزيبى سكاتولين، أحمد حسن، التجليات الروحية، ص68.

[55] ابن قتيبية، عيون الأخبار، جـ2، ص344، وانظر أيضا: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ3، ص68.

[56] عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف، ص163.

[57] الجاحظ، البيان والتبيين، جـ3، ص69.

[58] الجوزى، صفة الصفوة، ص 156.

البدء بإصلاح الفرد. ويؤكد الحسن البصرى أكثر فأكثر على أهمية المحاسبة فيقول: إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة[59]. ويمكننا أن نرصد انتقال الحسن البصرى من المحاسبة إلى التقوى حين يقول: أيها الرجل! اتق الله فى نفسك وإياك والأمانى التى ترجّحت فيها فتهلك[60].

وإذا كان الحسن البصري قد قدم هذه المعاني المتعددة لمفهوم المحاسبة فإن ذلك يعني أنه يعتبر العاصي مسئولاً تمامًا عن أفعاله ومن هنا فإنه ينكر أن يبرئ المرء نفسه بالقول بأن الله تعالى خلق كل الأفعال في مواضع مترابطة بعضها البعض. أي أننا يمكن أن نعتبر موقف الحسن البصري تدعيمًا للمذهب الذي يؤكد حرية الإرادة الإنسانية في مقابل مذهب إنكار حرية الإرادة (الجبرية) رغم أن موقفه من هذه القضية الشائكة ظل محيرًا. إلا أنه في خطابه المشهور للخليفة عبد الملك بن مروان، حيث كان عبد الملك يؤيد وجهة النظر القدرية أو الجبرية التي تبرر بصورة ضمنية حكم سلالته (أو أسرته) فقد أظهر الحسن قدرة جديرة بالملاحظة في المناورة في المشكلات العويصة، دون أن يتخلى مع ذلك عن مبادئه الأساسية بشكل صريح. وعلى نحوٍ وافٍ فقد أظهر الرجل احترامًا لسلطة الخليفة، واحتفظ لنفسه بالحق بانتقاد ما رآه انتهاكًا[61].

---

[59] الأصبهانى، حلية الأولياء، ج2 ص157.

[60] على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، جـ3، ص137.

[61] Knysh, ***Mysticism***, p. 11–12.

(ISSN : 2536 - 9555)

رابعًا– مصطلح الحزن: كما تحدث الحسن البصرى عن الخوف، فإنه كان الغالب على نفسه الحزن والهم، وله فى ذلك عبارات كثيرة جدا منها: إن المؤمن يصبح حزينًا ويمسى حزينا، ولا يسعه فى دينه إلا الحزن. كما ربط الحسن البصرى بين الحزن والموت فى عبارته: يحق لمن يعلم أن الموت مورده أن يطول حزنه. كما ربط بين الحزن والبكاء حين قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحًا لأبكيتكم ليلة صبيحتها يوم القيامة[62]. كما اعتبر أن الحزن يدفع الإنسان إلى فعل العمل الصالح، حين قال: طول الحزن فى الدنيا تلقيح العمل الصالح. ولكثرة إعلان الحسن البصرى عن مبدأ الحزن وصفه البصريون بقولهم: "ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة"[63] ولذلك حرم على نفسه الضحك، قائلا: "كثرة الضحك تميت القلب"[64]، وفى عبارة أخرى "نضحك! ولا ندرى لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئًا"[65]. ونجد لديه مستوى أعلى من مستوى الحزن وهو ما يسميه "**الغم**"، حيث نجده فى بعض العبارات الأخرى يقول: "من بقى من المسلمين فهو مغموم"[66]، ويكرر هذا المعنى كثيرًا، فنجده يقول: "والله ما من الناس رجل أدرك القرن الأول أصبح بين ظهرانيكم إلا أصبح مغموما وأمسى مغموما"[67]...

---

[62] الأصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص143.

[63] محمد جلال شرف، خصائص الحياة الروحية فى الإسلام، ص65.

[64] الأصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص152.

[65] المرجع السابق، ج2، ص134.

[66] المرجع السابق، ج2، ص132.

[67] المرجع السابق، ج2، ص133.

ومن الملاحظ أن هذا الاتجاه سينتشر فى القرن الثانى الهجرى خاصة لدى بعض الزهاد الذين أطلق عليهم اسم "**البكائين**"، مثل: فرقد السبخى (ت: 132هـ/749م)، وهشام بن حسان القردوسى (ت:148هـ/765م)، وعبد العزيز بن سليمان الراسبى (ت:150هـ/767م)، وعبد الواحد بن زيد (ت:177هـ/793م) ولا غرابة حينما نعرف أنهم يعتبرون من أشهر تلاميذ الحسن البصرى. ليس هذا فحسب بل سيصبح باب الحزن من الأبواب الرئيسة فى المصنفات الصوفية، وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى[68] سيحاول الصوفية ترسيخ ذلك بحديث نبوى يقول: "إن الله تعالى يحب كل قلب حزين"[69].

5- **الخاتمة**:

1) أهم ما يعنينا هو ظهور ونشأة ثلاثة مصطلحات وهى: (الخوف، المحاسبة، الحزن) وستصبح فيما بعد من المصطلحات المركزية والمحورية في التصوف الإسلامي.

2) يمكننا القول بأن بذور المعنى الاصطلاحي لمصطلح "**مقام**" ومصطلح "**حال**" ربما كانت موجودة فى القرن الأول الهجري خاصة لدى الحسن البصري، خاصة حين قال: "إن المؤمن يصبح حزينا ويمسى حزينا وينقلب باليقين فى الحزن"[70]. فربما أشارت العبارة السابقة إلى انتقال المؤمن من

[68] عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف، ص173.
[69] لم أجده فيما لدى من مصادر.
[70] أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج2، ص133.

(ISSN : 2536 - 9555)

حالة وجدانية إلى حالة وجدانية أخرى دون تدخل منه فى ذلك كـ "ينقلب باليقين فى الحزن"[71].

3) لا نجد لدى الحسن البصرى خط سير واضح أو ترتيب منظم للمصطلحات الصوفية، فلا ينتقل من مصطلح إلى آخر، إلا أنه بالرغم من ذلك نجد تعددية واسعة في المعاني للمصطلح الواحد ولعل أبرز مثال على ذلك مصطلحي (الخوف والمحاسبة).

4) أن مصطلح الخوف (الذى أكثر الحسن البصرى الحديث عنه) سيصبح بعد ذلك بابًا من الأبواب الرئيسة فى كتب التصوف، على أساس أن "الخوف من مقامات أهل الطريق" ويمكن أن نرى الدليل على ذلك بسهولة حينما ننظر إلى بعض المصنفات الصوفية، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن (أبو بكر الكلاباذى ت:380هـ/990م، وأبو نصر السراج الطوسى ت:378هـ/988م، وعبد الملك الخركوشى ت:406هـ/1015م، وعبد الرحمن السلمى ت:412هـ/1021م، وعبد الكريم القشيرى ت:465هـ/1072م قد خصص كل منهم بابًا يتحدث فيه عن مقام الخوف ومعناه عند صوفية الإسلام. ولم يكن حديث الحسن البصري عن الخوف نتيجة لكثرة ذنوبه أو ما شابه ذلك، بل إنما يكون الخوف لصفاء القلب وشدة التعظيم لله سبحانه وتعالى.

5) كما أن مصطلح المحاسبة الذى تحدث عنه الحسن البصرى سيصبح أيضا من المصطلحات المركزية فى القرن الثالث الهجرى بصفة خاصة وبصفة عامة لدى: الحارث بن أسد المحاسبى ت:243هـ/857م، ويمكننا أن نجد

[71] المرجع السابق، ج2، ص133.

تشابهًا واضحًا فى العديد من العبارات التى تتحدث عن مصطلح المحاسبة لدى كلٍّ من الحسن البصرى والحارث المحاسبى[72]، وبالطبع لا يعني ذلك ترادف معنى مفهوم المحاسبة عند كلٍّ منهما. ليس هذا فحسب بل كما يقول الكسندر كنيش: إن هذا التحليل النفسى أو السيكولوجى القائم على مبدئى الخوف والمحاسبة لدى الحسن البصرى صار حجر الأساس لمبدأى التهذيب الذاتى والاستبطان الذاتى للمحاسبة اللذين أثمرا نتائج طيبة فى أعمال الحارث المحاسبى[73].

المصادر والمراجع

أولا- المصادر والمراجع العربية:

1. إبراهيم بسيونى ، ***نشأة التصوف الإسلامى***، دار المعارف، مصر، 1969.
2. ابن العماد الحنبلى، ***شذرات الذهب فى أخبار من ذهب***، مكتبة القدسى، القاهرة، بدون تاريخ.
3. ابن خلكان، ***وفيات الأعيان***، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
4. ابن عساكر، ***تاريخ مدينة دمشق***، تحقيق على شيري، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1415هـ. ابن أبى الفت الإربلي، ***كشف الغمة***، دار الأضواء للنشر، بيروت، 1997.
5. أبو الحسن الهجويرى، ***كشف المحجوب***، ترجمة إسماعيل ماضى أبو العزائم، دار التراث العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، بدون تاريخ.

[72] للوقوف على بعض العبارات التى تتشابه فى المعنى بين الحسن البصرى والحارث بن أسد المحاسبى، انظر: الحارث بن أسد المحاسبى، كتاب الرعاية لحقوق الله، ص63،48، 69، 128.

[73] Knysh, ***Mysticism***, p. 12.

(ISSN : 2536 - 9555)

6. أبو الفداء ابن كثير، ***البداية والنهاية***، المطبعة السلفية، القاهرة، 1351هـ.
7. أبو الفرج الجوزى ، ***صفة الصفوة***، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989.
8. أبو الوفا التفتازانى ، ***مدخل إلى التصوف الإسلامى***، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979.
9. أبو بكر الكلاباذى، ***كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف***، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
10. أبو حامد الغزالى، ***إحياء علوم الدين***، دار الخير، بيروت، 1990.
11. أبو طالب المكى، ***قوت القلوب فى معاملة المحبوب***، تحقيق سعيد مكارم، دار صادر، بيروت، 1995.
12. أبو عثمان الجاحظ، ***البيان والتبين وأهم الرسائل***، دار المشرق، بيروت، 1986.
13. أبو نصر السراج الطوسى، ***كتاب اللمع***، تحقيق عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.
14. أبو نعيم الأصبهانى، ***حلية الأولياء وطبقات الأصفياء***، دار الكتاب العربى، بيروت، 1980.
15. أحمد توفيق عياد، ***التصوف الإسلامى "تاريخه، ومدارسه، وطبيعته، وأثره"***، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970.
16. آنا مارى شيمل، ***الأبعاد الصوفية فى الإسلام وتاريخ التصوف***، ترجمة محمد إسماعيل السيد، دار الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2006.
17. تاج الدين السبكى، ***طبقات الشافعية***، مطبعة مصر، 1342هـ.
18. الجنيد البغدادي، ***رسائل الجنيد***، تحقيق على حسن عبد القادر، القاهرة، 1998.
19. جوزيبى سكاتولين وأحمد حسن، ***التجليات الروحية فى الإسلام نصوص صوفية عبر التاريخ***، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008.

20. الحارث بن أسد المحاسبى، ***الرعاية لحقوق الله***، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
21. عبد الرءوف المناوى، ***الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية***، تحقيق عبد الحميد صالح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.
22. عبد الرحمن السلمى، ***طبقات الصوفية***، تحقيق نور الدين شريبه، مكتبة الخانجى، القاهرة، 1986.
23. عبد الرحمن بدوى ، ***تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى***، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975.
24. عبد الملك الخركوشى، ***تهذيب الأسرار***، تحقيق بسام بارود، المجمع الثقافى، أبو ظبى، الإمارات، 1999.
25. على سامى النشار، ***نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام***، دار المعارف، 1980.
26. فريد الدين العطار، ***تذكرة الأولياء***، ترجمة منال عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006.
27. لويس ماسنيون ، مصطفى عبد الرازق، ***الإسلام والتصوف***، لجنة دائرة المعارف الإسلامية مطابع دار الشعب، القاهرة، 1979.
28. محمد الراشد، ***نظرية الحب والاتحاد فى التصوف الإسلامى***، دار الأوائل، دمشق، 2006.
29. محمد بن الطيب، ***وحدة الوجود فى التصوف الإسلامي فى ضوء وحدة التصوف وتاريخيته***، دار الطليعة، بيروت، 2008.
30. محمد بن سعد، ***الطبقات الكبرى***، دار التحرير، القاهرة، 1986.
31. محمد بن شاكر الكتبي، ***فوات الوفيات***، تحقيق على محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
32. محمد جلال شرف، ***دراسات فى التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب***، بيروت، دار النهضة العربية، 1980.

(ISSN : 2536 - 9555)

33. مصطفى حلمى، ***الزهاد الأوائل دراسة فى الحياة الروحية الخالصة فى القرون الأولى***، دار الدعوة للطبع والنشر، الإسكندرية، 1979.

34. مصلح سيد بيومى، ***الحسن البصرى من عمالقة الفكر والزهد والدعوة فى الإسلام***، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1980.

35. نجلاء على حسين، ***الزهد عند عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسه ومحمود الوراق: دراسة أدبية وأسلوبية للزهد فى القرن الثانى الهجرى***، مكتبة الآداب، القاهرة، 2006.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. Arberry, Arthur John, ***Sufism. An Account of the Mystics of Islam***, London, 1950.
2. Trimingham, J. Spencer, ***The Sufi Orders in Islam***, Oxford University Press, Oxford, 1971.
3. Knysh, Alexander, ***Islamic Mysticism - A Short History***, Leiden: Brill, 2000.
4. Massignon, Louis, ***Essai sur les origines du lexique téchnique de la mystique musulmane***, Paris, Cerf, 1999 (1ed. Geuthner, 1922; Vrin, 1954).
5. Palmer, F. R., ***Semantics***, second edition, Cambridge, 1981.
6. Tor, Andrae, ***In The Garden Of Myrtles***, State University of New York, 1987.
7. Toshihiko, Izutsu, ***God and Man in The Koran***, The KEIO Institute of Cultural, Tokyo, 1964.
8. Ullmann, Stephen, ***Semantics, an Introduction on The Meaning***, Oxford, Blackwell, 1962.